الأغراض الشعرية عند المعتمد بن عبّاد

د.جمعة حسين المفجر (*)
كلية التربية الزاوية– جامعة الزاوية

المقدمة:

قد لا تختلف الأغراض الشعرية عند الشعراء، ولكن هناك من يتميز في غرض دون غيره من الأغراض، فهناك من أُشْتُهِرَ وعُرف بالوصف، وهناك من أُشْتُهِرَ بالمدح، وغيرهما بالغزل، أو الهجاء وغيرها من الأغراض الشعرية المعروفة، وشاعرنا ليس استثناء من هؤلاء. فما هي الأغراض التي تناولها شعر المعتمد بن عبّاد؟ وسأتناول في هذا البحث هذه الأغراض، معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي في هذا البحث، وقسمت البحث على مجموعة من المطالب بعد المقدمة، ونهاية بخاتمة البحث، والهوامش والإحالات

The Poetic Purposes of al-Mu`tamid ibn Abbad

Abstract:

Poetic purposes may not differ among poets, but there are those who are distinguished for one purpose rathr than others Our poet is not an exception to these, so what are the purposes of the poetry of Al-Mutamid bin Abbad?

This research discusses these purposes based on the descriptive analytical method The research was divided into a set of sections after the introduction and the end with the conclusion of the research as well as footnotes and referrals.

He is Muhammad ibn Abbad ibn Muhammad ibn Ismail al-Lakhmi, Abu al-Qasim al-Mu,tamid on God He was born in the city of Beja, which was one of the cities in westen Andalusia He assumed power after his father, AI-Mu,tadid, at the age of twenty-nine, that is, he assumed the throne of Seville.

(*) Email: hanan.bezan@academy.edu.ly

He is an important poet in our Andalusian literature, one of the glorious and masterful poets, who used rhetorical devices and added a wonderful artistic image, especially during his captivity, as well as in his war and the Battle of Zallaqah.

As for rhyme and rhyming letters, the poet is between restriction and release, as if he was mimicking what he felt during his captivity of release, as if he was mimicking what he felt during his captivity of restrictions and shackles. He tied some of his rhymes, while he unleashed some other rhymes to swim in a material and spiritual world in his flirtations and his wars. Further, he was successful in choosing those rhymes as well rhyming letters in his amatory poetry (Ghazal) and lamentation in particular.

The poets life and poetic purposes remain the subject of a good research for scholars in order to clarify the picture that this research came as a modest attempt to clarify.. God Almighty is behind the intent.

المطلب الأول – التعريف بالشاعر:

هو محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي أبو القاسم المعتمد على الله[1]. ولد في مدينة باجة عام 432هـ، وهي من مدن غرب الأندلس، تولى الحكم بعد أبيه المعتضد، وهو في سن التاسعة والعشرين، أي تولى عرش إشبيلية. درّبه والده على ممارسة الحكم وإدارة السلطان، وكذلك درّبه على قيادة الجيوش، وفنون القتال، وأسند إليه مهمة قيادة الجيش الذي حاصر مدينة شلب.[2]

المطلب الثاني – زواجه:

كان في يوم من الأيام يتنزه هو وصديقه ابن عمّار، وجلسا إلى جانب نهر الوادي الكبير، فقال المعتمد لصديقه الشاعر مقطعاً من الشعر هو:

"**صَنَعَ الرّيحُ من الماء زَرَدْ**"[3]

وطلب منه أن يتمه، لكن ابن عمار عجز عن ذلك، ولم يكن سريع البديهة، فما كان من امرأة، وهي واحدة من الغسالات على مقربة منهما إلاّ أن أجابت:

"**أي درعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ**"[4]

وقد نالتْ إعجاب المعتمد وسألها إن كانت متزوجة أم لا؟ فأجابت بالنفي، وكانت جارية لرميك بن حجاج واسمها اعتماد فاشتراها من الرميك وتزوجها، وكانت أفضل نسائه عنده، وكان المعتمد يلقب في البداية بالمؤيد، ويبدو هذا واضحاً من قول ابن عمار في اعتذاره إليه وهو (الطويل):

ألا إن بطشاً للمؤيد يرتجي ولكن حلماً للمؤيد أرجح[5]

وكانت اعتماد هي السبب في أن تلقب بالمعتمد[6]، كانت علاقة المعتمد بابن عمار علاقة متميزة وهذا ما دعاه لتوليته على شلب وهي موطن مولد المعتمد، وقد قال المعتمد في وداع ابن عمار وهو يشد الرِّحال إلى شلب (من الطويل):

أَلا حيّ أَوطاني بِشِلبٍ أَبا بَكرٍ وَسَلهُنّ هَل عَهدُ الوِصالِ كَما أَدري
وَسَلِّم عَلى قَصرِ الشَرابيبِ عَن فَتىً لَهُ أَبَداً شَوقٌ إِلى ذَلِكَ القَصرِ
مَنازِلُ آسادٍ وَبيضِ نَواعِمٍ فَناهيكَ من غيلٍ وَناهيكَ مِن خِدرِ
وَكَم لَيلَةٍ قَد بِتُّ أَنعَمُ جُنحَها بِمُخْصَبَةِ الأَرداف مُجدَبَةِ الخَصرِ
وَبيضٍ وَسُمرٍ فاعِلاتٍ بِمُهجَتي فِعالَ الصِفَّاحِ البيضِ وَالأَسلِ السُمرِ

ولم تمضِ فترة طويلة على بقاء ابن عمّار بعيداً عن صديقه المعتمد، إذ سرعان ما استدعاه واختاره ليكون كبير وزرائه، كما كان مرافقاً له في لهوه وساعات طربه، ولكن أيام الود بينهما لم تدم، فقد دخل الزهو لنفس ابن عمّار، وربما تناسى ابن عمّار قول الشاعر (الوافر):

جِراحات السّانِ لها التِئامٌ وَ لا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ[7]

المطلب الثالث – أحداث في حياته:

ومن الأحداث التي يجب ذكرها عند الحديث عن المعتمد ابن عباد المعركة الكبيرة التي كانت بين العرب بزعامة ابن تاشفين والمعتمد بن عباد والفرنجة بزعامة ألفونسو السادس كانت الزلاقة يوماً عربياً وإسلامياً كبيراً أثر في مجرى التاريخ إذ أطالت عمر الوجود العربي في الأندلس، قارب ما لا يقل عن أربعة قرون، هذه المعركة كانت نتيجة أطماع ألفونسو من جهة ومن جهة أخرى ضعف ملوك الطوائف، ولم يكن أمام المعتمد من وسيلة ليواجه غطرسة ألفونسو وتهديده إلاّ أن يستنجد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، وهذا لم يُرضِ ملوك الطوائف، ومن بين المتخوفين –أيضاً– الرشيد ابن المعتمد بن عباد وكان جواب المعتمد بن عباد عن هذه المخاوف (رعي الجِمال خير من رعي الخنازير).[8]

يعني أن يكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جِمالهُ في الصحراء خير من كونه أسيراً عند ألفونسو يرعى له الخنازير في قشتالة.

كانت المعركة يوم الجمعة في (12 رجب 479هـ–الموافق 1086/10/32م)[9]، واستمرت المعركة يوماً واحداً، وأسفرت عن هزيمة ألفونسو هزيمة نكراء.

خرج فيها ابن عباد أسداً قوياً يُهاب ولا يَهاب حتى قال فيه الشاعر ابن حمديس الصقلي منها (الطويل):

ليهنأ بنو الإسلام أن أبت سالماً وغادرت أنف الكفر راغماً
كشفتَ كروباً عن قلوبٍ كأنما وضعتَ عليها من هواك خواتماً
صبرتَ لحرِّ الطعنِ والضرب ذائداً عن الدين واستصغرتَ فيه العظائما[10]

وبعيداً عن التفصيل، قرر المرابطون الاستيلاء على الأندلس مدينة تلو أخرى، حتى كانت النتيجة أسر المعتمد، ونُفيَ إلى مدينة (أغمات)[11]، ونفيه إلى هذه المدينة؛

لأنه يصعب على المعتمد الهرب منها، أو أن يجد بها سبيلاً إلى الهرب أو طريقاً إلى الثورة ضد ابن تاشفين.

المطلب الرابع – وفاته:

بقي المعتمد في أغمات حتى توفي لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال عام ثمان وثمانين وأربع مئة للهجرة 488هـ، وكان في السادسة والخمسين من عمره، ونُوديَ بجنازته في الصلاة على الغريب بعد عظم شأنه، وقوة سلطانه. يقول أبو بحر بن عبد الصمد الذي حضر إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد (الكامل):

مَلِكَ المُلوكِ أَسَامِعٌ فَأُنادي أَمْ قَد عَدَتكَ عن السّماعِ عَوَادي
لما خَلَتْ منكَ القُصور ولم تكن فيها كما قد كُنتَ فِي الأَعيادِ[12]

المطلب الخامس – أغراض شعره:

لقد قال المعتمد بن عباد في معظم أغراض الشعر وكان لا يستوزر كاتباً ولا وزيراً ما لم يكن شاعراً، وقد عمل على اجتذاب الشعراء والأدباء، فوفدوا عليه، ونالوا جزيل عطاياه، حتى صارت إشبيلية صاحبة العلو الثقافي[13]، وللمعتمد ديوان شعر يتألف من أربع وسبعين ومائة قصيدة وثلاثة وتسعين وثمان مئة بيت من الشعر، موزعة على بعض الأغراض الشعرية وفق التالي:

ر.م	الغرض	عدد القصائد	عدد أبيات الشعر
1	الغزل	65	222
2	في الوصف	4	16
3	إلى أبيه	18	139
4	في أولاده	3	21
5	رسائل	23	110
6	فخر	4	19
7	رثاء	3	25
8	تهكم	1	16
9	الإجازة	4	9
10	المعميات	5	33
11	قبل الأسر	2	18
12	في الأسر	42	365
المجموع	12	174 قصيدة	893 بيت شعر[14]

يتبين لنا –مما سبق– أنه قال في معظم أغراض الشعر، وكان من أهمها غرض الغزل، وغزله صادق يعبّر فيه عن عواطف في مختلف الظروف التي عاشها أو مرّ فيها، وتغزّل بكثيرات من النساء منهن جواريه: سحر ووداد وجوهرة وغيرهن ومما يقوله في زوجه اعتماد الرميكية وكانت تلقب بأم الربيع (الطويل):

تَظُنُّ بِنا أُمُّ الرَبيعِ سآمَةً ... أَلا غَفَرَ الرَحمنُ ذَنبا تُواقِعُهْ
أَأَهجرُ ظَبياَ في فؤادي كِناسهُ ... وَيَدرَ تَمامٍ في جفوني مَطالِعُهْ
وَرَوضَةَ حُسنٍ أَجتَنيها وبارداً ... من الظَلَمِ، لَم تحضر عليّ شَرائِعُهْ
إذا عدمتْ كَفّي نَوالاً تُفيضُهُ ... عَلى مُعتَفيها أَو عَدُوّا تُقارِعُهْ[15]

ويقول فيها قصيدة من ستة أبيات تشكل الأحرف الأولى من الأبيات اسمها (المتقارب):

أَغائِبَةَ الشَخصِ عَن ناظِري ... وَحاضِرَةً في صَميمِ الفُؤادِ
عَلَيكِ سَلامٌ بِقَدرِ الشُجونِ ... وَدَمعِ الشُؤونِ وَقَدرِ السُهادِ
تملكتِ مِنّي صَعْبَ المَرامِ ... وَصادَفْتِ ودّي سَهلَ القيادِ
مُرادِيَ لُقياكِ في كُلِّ حين ... فَيالَيتَ أَنّي أُعطى مُرادي
أَقيمي عَلى العهدِ ما بَينَنا ... وَلا تَستَحيلي لِطولِ البِعادِ
دسَستُ اِسمَكِ الحُلوَ في طيه ... وَأَلّفتُ فيهِ حُروفَ اِعتِمادِ[16]

وقوله في سحر (الطويل):

عَفا اللَهُ عَن سِحرٍ عَلى كُلِّ حالَةٍ ... وَلا حوسِبَتْ عَمّا بِها أَنا واجِدُ
أَسِحرٌ ظَلَمتِ النَفسَ وَاِخترتِ فُرقَتي ... فَجَمَّعتِ أَحزاني وَهُنَّ شَوارِدُ
وَكانَت شُجوني بِاقتِرابِكِ نُزّحاً ... فَها هُنّ لَمّا أَن نأيت شَواهِدُ[17]

ويقول في وداد:

أشرَب الكأسَ في وِداد ودادكْ ... وَتأنَّس بِذِكرها في اِنفرَادكْ
قَمَرٌ غابَ عَن جُفونك مَرآ ... هُ وَسُكنَاهُ في سَواد فُؤادِكْ[18]

وفي جوهرة وهي جارية له يقول (السريع):

سُرُورُنَا دَونَكُمُ نَاقِصُ ... والطيب لَا صَافٍ وَلَا خَالِصُ
وَالسَّعْدُ إِنْ طَالَعَنَا نَجْمُهُ ... وَغِبْتِ فَهْوَ الْآفِلُ النَّاكِصُ
سَمَّوْكِ بِالْجَوْهَرِ مَظْلُومَةً ... مِثْلُكِ لَا يُدْرِكُهُ غَائِصُ[19]

المطلب السادس – الخصائص الفنية لشعره:

كان شعر المعتمد بن عباد صورة صادقة، ومعبرة تعبيراً صادقاً وصحيحاً عن الحياة التي عاشها في عهد الإمارة، والملك، وعهد المحنة، والأسر. فهو شاعر أمير وملك، لم تدفعه الحياة إلى التكسب والارتزاق بالشعر، ولم يُلْبِس عواطفه غير لبوسها، يمتاز شعره بالسهولة والدقة والوضوح في اختيار ألفاظه، وكذا وضوح معانيه، ويدل على ثقافة واسعة، وتجارب حياتية مختلفة ولا نبالغ – إذا قلنا – متناقضة.

موسيقاه تنوعت بين الموسيقا الداخلية في استخدامه لبعض الحروف الصفيرية كالسين، والصاد وغيرهما، وموسيقا خارجية وذلك من اختياره لروي ذي جرس متناغم مع غرضه الشعري، وقوافيه كانت متنوعة، وملائمة لأغراضه الشعرية، وكان بحاراً ماهراً، غاص في أغلب بحور الشعر: الطويل، المتقارب، الوافر، البسيط، الكامل، وغيرها من البحور الشعرية المعروفة.

العاطفة التي سيطرت عليه تختلف باختلاف أغراضه الشعرية بين: الفرح والسرور، والحزن والشجون، الحنين والشوق إلى مسقط الرأس، بل ربما غلب على شعره روح الاستسلام، وذلك لجور الزمان، وقسوة الأيام، لكنه يوصي نفسه بالصبر، ومع هذا تبدو نفسيته محطمة على غير ما كانت عليه في أيام عزه، يندب حظه ويحاول إقناع نفسه بان ما يمر به هو من قدر الله وقضائه: خيره وشره، حلوه ومرّه، وإليك بعض الأمثلة من شعره فيما ذكرناه:

ففي عهد المحنة والأسر، وحين هُوجمت إشبيلية فخرج مدافعاً عن نفسه وملكه، وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع فقال (الكامل):

لمّا تَماسَكتِ الدُموعُ ... وَتنبّهَ القَلبُ الصَديعُ
قالوا: الخُضوعُ سياسَةٌ ... فليبدُ مِنك لَهُم خُضوعُ
وَأَلَذُّ مِن طَعمِ الخُضو ... ع عَلى فَمي السَمُّ النَقيعُ
إن يسلب القَومُ العدا ... مُلكي وتسلمني الجُموعُ
فالقَلبُ بَينَ ضُلوعِه ... لَم تسلم القَلبَ الضُلوعُ
شِيَمُ الألى أنا مِنهُمُ ... وَالأَصلُ تَتبَعه الفُروعُ[20]

وعاطفة الحزن والكمد التي عاشها عند فقد ولديه: المأمون والراضي يقول (الطويل):

يَقُولونَ صَبراً لا سَبيلَ إِلى الصَبرِ ... سَأَبكي وَأَبكي ما تَطاوَل مِن عُمري
هَوى الكَوكَبانِ الفَتحُ ثُمَّ شَقيقُهُ ... يَزيدُ فَهَل بَعدَ الكَواكِبِ مِن صَبرِ
ترى زهرهما في مأتمٍ كل ليلةٍ ... تخمش لهفاً وسطة صفحة البدرِ
هوى بكما المقدار عنيّ ولم أمت ... وأدعي وفياً ! قد نكصت إلى الغدرِ
تَوَلَيتُما وَالسنٌ بَعدُ صَغيرَةٌ ... وَلَم تَلبثِ الأَيّامُ أَن صَغَّرت قَدري
يُعيدُ عَلى سَمعي الحَديدُ نَشيدَهُ ... ثَقيلاً فَتَبكي العَينُ بالجسّ وَالنَقرِ[21]

وعندما وقع في الأسر وذاق مرارة السجن، وظلم وجور الزمان، وقسوة الأيام، وذبّ إليه الاستسلام نجده يقول (البسيط):

أَقنَع بِحَظِك في دُنياكَ ما كانَا ... وَعَزِّ نَفسِكَ إِن فارَقت أَوطانا
في اللَه مِن كُلِّ مَفقودٍ مَضى عِوَضٌ ... فأشعر القَلبَ سُلوانا وَإيمانا
أَما سَمِعتَ بِسُلطانٍ شَبيهكَ قَد ... بَزَّتهُ سودُ خُطوب الدَهرِ سُلطانا
وَطِّن عَلى الكُرهِ وَارقُب إِثرَهُ فَرجاً ... وَاستَغنم اللَهَ تَغنَم مِنهُ غُفرانا[22]

وختاماً:

هذا شاعر مهم في أدبنا الأندلسي: ذاع صيته، وبلغت شهرته الآفاق من الشعراء المجيدين البارعين، حاولنا أن نلقي بعض الضوء على جوانب من حياته وأغراض شعره، ولم يبق لنا إلا الإشارة إلى بعض المعالم البلاغية في شعره، فقد استخدم الشاعر المحسنات البديعية، والبيانية، وأردف بالصورة الفنية الرائعة الرائقة، وخاصة في فترة أسره، وكذلك في حربه ومعركة الزلاقة، مما هو موجود في ثنايا هذا البحث. يُحلّق الشاعر بجناحين من الخيال والحقيقة، جعلنا نسرح معه في ذلك العالم الذي عشق فيه نساء كثيرات، وناله من الأسر والحزن ما ناله.

أما عن القافية، والروي، فإن الشاعر بين التقييد والإطلاق، فكأنه كان يحاكي ما شعر به أثناء أسره من القيود والأغلال، فقيّد بعض قوافيه، فحين أطلق العنان لبعض القوافي الأخرى كي تسبح في عالم مادي وروحي في غزلياته ووصفه لحروبه، وكان موفقاً في اختيار تلك القوافي وكذلك حروف الروي في قصائده عامة، وفي غزله، ورثائه خاصة.

تبقى حياة الشاعر وأغراضه الشعرية موضوع بحث جيد للدارسين، كي نجلي الصورة التي جاء هذا البحث محاولة متواضعة لتوضيحها.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد.

الهوامش والإحالات:

1- الأعلام/ الرزكلي – الطبعة الخامسة عشر/1926/دار العلم للملايين-18/6.
2- تاريخ إسبانيا حتى فتح الأندلس من قبل المرابطين/تحقيق ليفي بروفنسال، 1932-83.
3- المصدر نفسه 86.
4- المصدر نفسه 86-87.
5- ديوان ابن عمّار الأندلسي/صلاح خالص/بلا طبعة/سنة 1957/مطبعة دار الهدى/بغداد/ص321.
6- المعتمد بن عباد/علي أدهم/بلا طبعة/بلا سنة/دار القدس/بيروت/ص107.
7- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان/الفتح أبو نصر ابن خاقان/بلا طبعة/سنة 1867/بولاق/97.
8- تاريخ إسبانيا حتى فتح الاندلس من قبل المرابطين (مصدر سابق)/116-120.
9- المصدر نفسه 127.
10- ديوان ابن حمديس الصقلي/تحقيق: إحسان عباس/بلا طبعة/سنة 1960/ دار صادر ودار بيروت/بيروت/425.
11- معجم البلدان/ياقوت الحموي/بلاطبعة/سنة 1922/بيروت/225/1.
12- المعتمد بن عباد الإشبيلي-بلا طبعة/سنة 1958/شركة بغداد للطباعة والنشر والتوزيع/بغداد/12.
13- في الأدب العربي الأندلسي والمغربي/علي دياب/طبعة أولى/سنة 2002/مطبعة المحبة/جامعة دمشق/141.
14- المرجع نفسه 141-142.
15- المعتمد بن عباد/مرجع سابق/20.
16- المرجع نفسه 8.
17- المرجع نفسه 8.
18- المرجع نفسه 10.
19- المرجع نفسه 19.
20- المرجع نفسه 88-89.
21- المرجع نفسه 105-106.
22- المرجع نفسه 114-115.